حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي
معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

ثمّ زاد الليل طراءةً وزاد القمر اصفراراً وكمدًا وانبعثت من البحيرة ابخرة رطبة باردة وظهرت أضواء ضعيفة مرتجفة من منازل القرى المحيطة بالبحيرة مثل تل النبي مند وكفر موسى وقطينة وشومارية وكفر عبده وغيرها فحينئذٍ عاد الشيخ البار الى كوخه قلق البال مضطرب الافكار فاغلق بابهُ رجاءً للصلاة من اجل من كان ينتظره

وكانت العصافير قد انقطعت اصواتها وتكاثر عدد الخفافيش الطائرة في الجوّ ثمّ هبّت ريح شماليّة باردة اضطرّتهُ لاقفال النافذة المطلّة على البحيرة. غير انهُ قبل ان يتمدّد على الحصيرة التي اتخذها فراشاً لهُ فتح النافذة حتى ينظر الى البحيرة لآخر مرّة. وكان قد تضاعف هبوب الريح وأخذ وجه الماء يتغطّ بامواج صغيرة بيضاء فما كان غير قليل حتى شاهد هيئة سوداء تسير على بساط الماء فحدق ببصره هنيهةً فرأى قاربًا دانيًا من الشاطئ وقد جلس في مؤخرهِ شخص ملتحف برداء عريض وفي مقدّمهِ شخص آخر يسوق الزورق وهو يقاتل الريح والامواج بغاية الكدّ والعناء. غير انّ الاب يوحنّا لم يأمل ان يكون فيهِ الاب جرماتوس لان وقت قدومهِ كان قد مرّ وانقضى وغاية ما ظنّ انهُ يحمل خفيرًا جديدًا بعث بهِ جوسلين لمزيد التضييق عليهِ بعد ان عرف ان احد اصدقائهِ توصّل الى تلطيف مرارة منفاهُ مدّة بعض ساعات في كل شهر

واخيرًا اتصل القارب الى الشاطئ وخرج منهُ الشخصان الى ارض الجزيرة. اما الشخص الملتحف بالرداء فكانت قامتهُ تدلُّ على انهُ رجل غير ان مشيتهُ تنبئ بكونهِ امرأةً وقد تقدّم منحنيًا مترددًا ولكن آثار السيادة باديةٌ عليهِ

فلمّا وصل الى الحبسة امر الجذّاف بان يطرق الباب فقام الاب يوحنا ففتح وقد اخذهُ العجب من الشخصين. ولما لبث ان زاد عجبهُ لمّا شاهد تحت ذاك الرداء على ضوء قنديلهِ الذي كانت انوارهُ الضعيفة تضيع في خلال الظلمة شخص امرأة جليلة وجميلة لبست ثوبًا متلألئًا بالحليّ وتشنّفت باقراط من الحجارة الكريمة وتزنّرت بمنطقة تلمع بالذهب الخالص

في الحال عمل اشارة الصليب وأغلق الباب في وجهها وظنّ ان الشيطان اتى ليجرّبهُ بهذه الطريقة. وكيف لا يظنّ ذلك وكان قد قرأ في سير الآباء القديسين ان الشيطان كان يتشكّل لهم في بعض الاحيان بصورة امرأة متبرّجة ليفقدهم ثمرة جهادهم الطويل

غير انّ المرأة صرخت قائلةً اسألك ايها الرجل القديس ان تصيخ اليّ وتأذن لي في هذا الليل ان اقيم ههنا. فما اتيت اليك الّا لاسترشد بنصائحك واي بأس اذا اذنت لي في المبيت على عتبة كوخك ؟

— أتطلبين الارتشاد في مثل هذه الساعة ؟ ثمّ ماذا يستطيع ان يفيدك هذا الشيخ الذي نبذ العالم نَبْذ النواة ؟

ومع ان الريح كانت تتلاعب بملابس تلك المرأة وغدائرها استمرت واقفة على عتبة باب الكوخ ثم اكملت كلامها بلهجة محزنة وهي تقول :

اني راحيل زوجة زَين مقدّم البترون وقد اتيتُ اليك طالبةً منك النصح والتعزية

— لم اعُد من هذا العالم. وباي حقّ يأتي الاحياء فيبلبلون سكينة الاموات ؟ واذا كنتِ تطلبين نصحًا وتعزية فلماذا تأتين من مكان بعيد وعندك بالقرب منك فرا غريغون رجل بارّ قديس ؟

— قد ركب البحر مسافرًا الى رومية. اما انت ايها البارّ صديقهُ واخوهُ فلا ترفض امرأة منكودة الحظ اتت تطلب منك المشورة والصلاة

ثم ان راحيل اخذت تقصّ عليه بصوت مرتجف يقطعهُ البكاء خبر الاحزان البيتيّة التي اطلعتنا الخادمتان بقلة افرازهما على شيء منها. فتأثر القديس من كلامها ورثى لها وتذكر الافراح التي أُقيمت في بشرّاي يوم زفافها وكيف ان المستقبل كان يبسم لها واصبحت الآن وقد حالت احوالها ووقفت امامهُ منكسرة القلب طالبةً عونه واسعافهُ. وقد رأى اذ ذاك انّ الحجّة المسيحيّة ما عادت تسمح له بعدم الاكتراث بنكبتها ولمّا تذكّر ان معلّمهُ الالهي شارك الحزانى في مصائبهم لم يتمالك من ذرف الدموع حتى تبلّلت منها وجنتاهُ النحيلتان

امّا راحيل فاتمّت الكلام قائلةً :

بعد ان امعنتُ النظر طويلاً في شقائي رأيتُ ايها الاب المحترم ان حظّك شبيهٌ بحظّي. كلاَّ لم يصدق المثل لانهُ اذا كان الانسان يعاقب في ما اخطأ بهِ فأنت عوقبت دون شك بسبب فضيلتك

— أقصري ايتها المرأة فان الحزن قد ضيَّع عقلكِ ودفعك الى التجديف وكيف تجترئين ان تحكمي على مقاصد الله ؟

— اني عالمة بكل ما جرى ايها الاب المحترم فلا تحاول صرف ذهني عمَّا انا عارفة بهِ حق المعرفة. نعم بما انك كنت رئيساً حازماً ومحافظاً على حقوق الله والكنيسة اسخطت جوسلين. وبغيرتك على التهذيب الرهباني حرَّكتَ حقد الاخ جناديوس. وبما انك اخفيت عن الناس اعمالك الصالحة حكموا عليك بالابعاد وانت الان تحتمل مرارة المنفى كرجل فاسد ومُراد أَلِف الخلاعة وهام بها. مع انهُ ما صام احد كصومكَ ولا عمل توبة باخلاص نظيرك

حينئذٍ قاطعها الاب يوحنا قائلاً بمساءة: كفاكِ كلاماً في امور تجهلينها. ويحك أتنسين مشورة الكتاب القائل بانهُ لا يجب اصلاً مديح الاحياء.

— سامح ايها الاب حسن نيَّتي واعلم ان مرارة نكبتي هي التي تُنطق لساني واذا كان زين يهماني وينساني فذاك في ظاهر الامر لسبب فضيلتي فاني بقدر ما ازيد محبَّةً يزيد هو فتوراً واعراضاً وينزل بي العقاب الذي تستحقهُ النساء القليلات الاكتراث ببعولتهنَّ او الخائنات لعهودهم. والله يشهد اني من بعد ما باركتَ زواجنا في قصر بشراي صارت كل افكاري لزوجي وكذلك كلّ حركة يتحرَّك بها فؤادي هي لهُ. ولا اظن ان امرأة احبَّت قرينها باخلاص اكثر مني

« ومعاذ الله ان أُنازع البارئ جلَّ اسمهُ في ما لهُ من الحق بابتلائي وامتحاني بل بعكس ذلك اقول اني قد ارتكبت الذنوب مراراً دون ان ينازعني المولى على ضنيني وقد كنتُ أزهى واتعجرف ولا أُشفق كما يجب على الفقير البائس. غير ان الامر الذي يحزنني جداً هو اني أُعاقب على ما لم أُخطئ بهِ ولذلك تجد قلبي منسحقاً منكسراً

« واعلم ان موسى هذا الخادم الامين الذي اوصلني الى هنا هو الذي اخبرني بخبرك وهو يعرفك حقَّ معرفة لانهُ مرض قديماً مرضاً ثقيلاً فحملتهُ الى دير حصن سليمان وعالجتهُ بعناية ابرَّية حتى شفي من دائهِ. فمنهُ عرفتُ انك لم تُعاقب على خطاياك وذنوبك

بل من اجل فضيلتك لا غير ولهذا فاننا من يومين قنا سرًا من مدينة البترون وزرنا في طريقنا مقام القديس جرجس في الحصن. وقد اتيتُ اليك لتشرح لي ما هو السرّ في عقابك وعقابي وتمدّني بمعونتك او على الاقلّ تذكر لي اسباب التعزية التي وجدتها لنفسك

فاجاب الاب يوحنا قائلًا:

— لو لم اكن عارفًا ان شدّة الضيق هي التي ازاغت عقلك لجاوبتك كما جاوب الله قديمًا ايوب البار (٣٨: ٢) : «من هذا الذي يلبس المشورة باقوال ليست من العلم في شيء». فيجب ان تعلمي ان الله عادل وان العدل قرين كل اعماله غير ان البشر في كثير من الاحيان لا يستطيعون ان يفقهوا سرّها. ثمّ ان الله لا يجازي الشرّ بالشرّ وقط لم يعاقب احدًا من اجل فضيلةٍ ولكنهُ يتفق ان تتوارى مع الفضيلة نفسها اعظم الخطايا واشنعها اي الأثرة والانانيّة. وهكذا القول عني انا الذي تتوهمينهُ اكثر اتضاعًا من جميع البشر...

— وما انا بمخدوعة في ظني

— اصيخي ايتها الابنة الى كلامي كما اصخت لكلامك. واعلمي اني ربّما كنت في تواضعي اشدّ الناس عجرفةً وكبرياء. ليس تجاه الغير بل في داخل نفسي وقدام الله لاني لا اقدر على القول باني تحاميت دائمًا ما اذوقهُ من لذّة الانشراح الباطني من اعمالي؟ نعم ان الناس لا يلحظون هذه الحركات الخفية التي تثيرها محبّة الذات فتفسد بها احسن الاعمال ولكنّها لا تخفى على الله تعالى الذي يفوص اعماق القلوب ويعرف اسرارها ولا شكّ اني كعقوبةٍ على هذه الكبرياء قد صرتُ شهيد الاتضاع

«هكذا ايضًا محبتك الحارّة لا بُدّ ان تكون ممتزجةً بالعجرفة وحب الذات فانت تقولين انك لا تحبين غير زوجكِ والحقيقة هي انكِ تحبين نفسكِ قبل كل شيء لانكِ تريدين ان يعرف لكِ المحبوب محبّتك ولا ترضين اصلًا بان يجهلها حتى لا يكون نصيبكِ كنصيب الشمعة تحترق وتنير وهي ساكتة فهذه المحبّة هي كلها غطرسة وزهو والمحبة لا تكون حقيقيّة خالصة الّا اذا كانت صافيةً ومتنزّهة عن كل عاطفة شخصيّة

— ولكن محبتي ناجية من الاكدار ومنزّهة... والدليل على ذلك وقوفي امامك

— هذا مجرّد زعم منكِ ايتها الابنة. ولكن افحصي خفايا قلبك وكالطبيب الذي يشفي الجرح بالنار والمبضع جرّبي هذا الدواء الذي اصفهُ لكِ: اكتمي محبتكِ وانتِ

الرابحة لانك بقدر رغبتك في اظهارها يتمادى زين عنادًا في رفضها وإبائك ومقاومة شقيقتك بل اجتهدي في ان لا تكون لك حيثيَّة ولا مقام تجاهها واخفي ميلك امامها ولاسيَّما في حضور زين . وبعد مرور شهر على سلوكك بهذه الطريقة ارجعي اليَّ فاخبريني عن احوالك

فحينئذٍ صرخت راحيل قائلةً : ان الذي تشير به ايها الاب هو الموت موت القلب فخير لي ان اموت مرَّةً واحدة

— لا بل أُشير عليك بالنجاة والخلاص اذهبي وأطيعي . قال هذا واغلق نافذة كوخه

وبعد مرور بضع دقائق سُمع صوت زوج من الجاذيف يضرب بايقاع مياه البحيرة التي كانت قد خمدت وسكنت . وكانت النجوم باديةً في القبَّة الزرقاء والجوّ صاحيًا نقيًا ليس فيه سوى قليل من الغيوم الرقيقة والقمر سائرًا الهوينا في طريقه وكل شيء في الطبيعة يشعر بالراحة والسكينة خلافًا لراحيل التي استولت على فؤادها عواصف البلبال

وبعد ان جلست في مؤخر القارب واشتملت بردائها جعلت تنظر وهي متشتتة البال الى ذاك المشهد الليلي دون ان يؤثر فيها جمالهُ الهادئ فمن جهة كانت ترى بساطًا من الماء تتلاعب فيه انوار القمر متبرجةً ومتحفزةً ومن جهة اخرى تشاهد جبال عكار وقد اشتملت في سفوحها بيوت القبائل العربيَّة النازلة في سهل « الوعر »

ثمَّ انها اخذت تدمدم في سرّها قائلةً : ذهب الغرور وظهرت الحقيقة وعرفت اني مخدوعة في ظني . على انك ايها الرجل لم تُحسن فهم كلامي . . . . ومع هذا أيجوز لي ملاءة احد غير نفسي ؟

فلمَّا وصل الاثنان الى الطرف الغربي من السدّ الكبير ركبا الخيل التي كانا قد ربطاها هناك وجدَّا في السير وكان سفرهما شاقًا متعبًا نظرًا لكثرة الحجارة البركانية في الوعر وبعد ساعة من الزمان ادركا محطة العرب وكانا قد اهتديا بنارها في وسط الظلمة . وفي اليوم التالي عند طلوع الفجر سارا في طريق جبل عكَّار مارين بلفتايا وحريصا وسهل البقيعة ولمَّا وصلا الى البترون كان الليل قد ارخى سدولهُ

وكانت الخادمتان مريم وفريدة متشاغلتين كعادتهما في المنزل وكأنهما ذهلتا ما كانتا قد عزمتا عليه من مدَّة فكانتا تتحدثان عن غياب مولاتهما باحثتين عن اسبابه

(ستأتي البقيَّة)